زعماء الحيوان

كتب الماء

اوردنا في مقتطف يوليو الماضي قصة ذئب كان زعيماً بين الذئاب قصدنا بها مع الفكاهة تقرير حقيقة علمية وهي وجود الزعماء في طوائف الحيوان المتأجاة. وقد وقعت القصة من القراء موقعاً حسناً . ونحن موردون الآن قصة حيوان آخر كان زعيماً في معربه وهو من النوع المسمى كلب الماء او القندس او البلدستر ومنه المادة الطبية المعروفة باسم جندبادستر هذا الحيوان ثديي مائي من القواضم كالسنجاب وهو صغير القد كالكلب طوله نحو

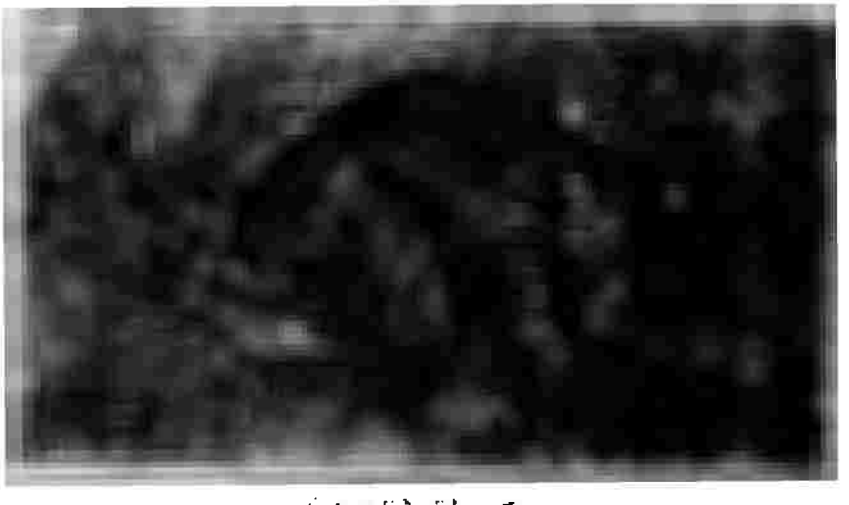

كلب الماء (البلدستر)

قدمين ونصف قدم وارتفاعه اقل من قدم ولذنبه عرض صفيق طوله نحو قدم يستعمله للسباحة وتليط سدّه بالطين وتمليسه . ومن مزاياه ان اسنانه القواطع كالازاميل فيقطع بها سوق الاشجار ويبني بعضها سدّاً في مجاري الماء ليتكون فوقه بركة يقيم فيها ويحتفظ بالبعض الآخر مؤونة للشتاء لان اكثر طعامه من لحاء الاشجار

يعيش هذا الحيوان آجالاً في البلاد الباردة والمعيشة الاجتماعية تولّد الزعماء. ولنضع احوال معيشته ومنزلة زعمائه من القصة التالية . وهي درس طبيعي لصموئيل سكوتل نشر في مجلة لندن . قال ما خلاصته

افترس الذئب والنمر من الغابة السوداء (بسمبركا الثمانية) فقطعتها جماعة من كلاب الماء قطعت الاشجار واقامت منها سداً منيعاً فاجتمع الماء فوقه بركة كبيرة . ثم احتفرت اوجاراً في حول البركة فوثبت بجذوع الاشجار وبطنتها بالطين والحجلب وولد في واحد منها الجرو الذي عليه مدار هذه القصة وهو ابن زعيم تلك الكلاب . ولد مفتوح العينين ظاهر الاسنان مثل كل ابناء نوعه لكنهُ ولد اسود الصوف فأطلق عليهِ الكاتب اسم الاسود . وقد ولد في بداءة فصل الربيع وكان الشتاء السابق قارساً كثرت فيهِ الامطار فجرفت السيول كثيراً من الاشجار التي كانت تلك الكلاب قد قطعتها وخزنتها طعاماً لها فاشتدت عليها السنة واخذ منها الجوع واضطرها الى زيادة الاهتمام بقطع الاشجار كلما سنحت الفرصة

اشرقت الشمس ذات يوم فخرجت ام الاسود بهِ لم يخرج معها غيرهُ لانهُ ولد فذّاً . خرج معها في العام السابق خمسة اجراء وفي الذي قبلهُ ثمانية ولكن كم من فذّ خير من جماعة فان هذا الجرو كان كبيراً مثل جروين يمشي الهوينا بقدم ثابتة تكنهُ لم يكن احمر اللون مثل كل ابناء نوعهِ فاستلق الى جانب امهِ فاذا هو اكبر من سائر الاجراء التي من عمرهِ . ثم جعلت كلاب الماء تخرج من البركة وتدنو منهُ وتشمهُ لتتعرفهُ كأنها وجدت بالاختبار ان التعرُّف بالشم خير من التعرف بالنظر ولاسيما لانها ليلية في الغالب . ولكل واحد من الحيوانات رائحة خاصة بهِ يمتاز بها عن غيرهِ ومتى عُرفت رائحة حيوان عُرف بها مدى حياتهِ قريباً كان او بعيداً . ثم جاء ابو الاسود وشمهُ وعضهُ عضة خفيفة في حنكهِ وهذه العضة علامة الرضى عند كلاب الماء كالتقبيل عندنا

بعد ذلك جعلت ام الاسود تعلمهُ ما تجب معرفتهُ على كل كلب ماء فوق المعرفة الغريزية التي ورثها من والديهِ واسلافهما فان اصابع رجليهِ كانت مضمومة بغشاء كاقداء الاوز فيستعين بهما على السباحة من غير تعليم وللاصبع الثانية في كل قدم ظفران كانهما سنّا مشط فيمشط بهما صوفهُ ولذلك كنت تراهُ يجلس في الشمس كل يوم ويمشط صوفهُ كلهُ حتى ينظف ويصير لامعاً كالزجاج . وقد علمتهُ امهُ ان ينظف جسمهُ ايضاً بالتمرغ في التراب كأن هذه العادة عادة التمرغ حديثة في كلاب الماء جرت عليها لما خرجت من الماء الى اليابسة

وكان على مقربة من السد قرية من قرى النمل فجعل ابوهُ يقودهُ اليها من وقت الى

آخر ويستلقي معهُ فيهرع النمل اليهما ويخلل صوفهما ويفلّيهما من الهوام لانها آفة حتى على الحيوانات المائية

وكان في مقدم فيهِ اربع اسنان حادة كالازاميل ففي اول مرة رأى في طريقهِ شجيرة قائمة جلس اليها وجعل يحت جذعها باسنانهِ مستديراً حتى قطعهُ غريزة موروثة في نوعهِ يمارسها من غير تعليم لان غذاءهُ في الشتاء من لحاء الاشجار التي يقطعها ويخزنها لهذه الغاية والذي يفقد هذه الغريزة من نسلهِ يتعرض جوعاً ولا يخلف نسلاً . وجرو كلب الماء يقطع الشجرة باسنانهِ كما يفتح الطفل الانسان فاهُ ويلتقم ثدي امهِ ويمتص اللبن منهُ . وكان ذنبهُ عريضاً صفيقاً كالمجذاف مثل كل ابناء نوعهِ فجعل يجذف بهِ وهو في الماء ويرتكز عليهِ وهو جالس على الارض بغريزتهِ وكان لهذا الذنب فائدة اخرى علمتهُ اياها امهُ تعليماً ذلك انهُ كان هناك طيور تبني عشاشها قرب السد ولحافتها تحسب ان كلاب الماء تأكل لحم الطيور وبيضها مع انها لا تأكل الاَّ النبات فكلما رأت كلباً من كلاب الماء دانياً من عشاشها هجمت عليهِ واوسعتهُ نقراً مؤلماً فيضطر ان يغوص في الماء ولا يخرج رأسهُ الاَّ بعد ما يبعد عن العشاش . وحدث مثل ذلك للاسود فاسرعت امهُ اليهِ وسارت امامهُ ولم تكد الطيور تدنو منها حتى ضربت الماء بذنبها ضربة عنيفة فطار رشاشهُ واصاب الطيور فاعمى بصرها فهربت لا تلوي على شيء فابتهج الاسود وحفظ هذا الدرس من امهِ

وذات يوم جعلت كلاب الماء تزيد في سمة السد ومتانتهِ والزعيم ابو الاسود مستلق امام وجرهِ يدير حركاتها بقوة تعجز عن ادراكها البشر وهو لا يبدي صوتاً ولا اشارة واذا بركز دخل اذنيهِ فضرب الماء بذنبهِ ضربة عنيفة وغاص فيهِ وللحال اقتفت الكلاب كلها اثرهُ الاَّ الاسود فانهُ بقي رابضاً على جزع من الجزوع واذا بامهِ قد بادرت اليهِ ورفعت رأسها وقبضت عليهِ باسنانها وغاصت بهِ تحت الماء ولم يكن الاَّ لحظة حتى ظهر من بين الهشيم رأس سنور بري قبيح المنظر

ومرَّت الايام والاسود يعاون ابناء قريتهِ في ترميم السدود واكثر عملهِ جلب الطين من قاع البركة وتقديمهُ للطينين حتى حذق ذلك . وكان بين ساعات العمل دقائق راحة ولهو ولعب فكانت اجراء كلاب الماء تتراكض وتتصارع وهو من اصغرها سناً ولكنهُ من اكبرها جسماً والظاهر ان اخاهُ وهو اكبر منهُ سناً تقم عليهِ كثيراً فتماسكا ذات يوم

وتجالدا وسائر كلاب الماء جادة في عملها لا تعبأ بهما وبعد كرّ وفرّ وصراع مستمر تمكن الاخ الاكبر من عض الاصغر في ذنبه وهو اشد اعضائه حساً فصرخ متألماً وغاص الى قاع الماء وهو يقضم مكان العضة بسرعة وذلك هو الداء الجراحي الناجع عند كلاب الماء. ان سائر الحيوانات تتصارع ويقتل بعضها بعضاً واما كلاب الماء فالغالب منها هو الذي يتمكن من عض خصمه لا غير

وجاء الصيف وكلاب الماء من ادأب الحيوانات على العمل فانها تقطع الاشجار وتبني السدود وتحفر الترع وتغير وجه الارض وشعارها التعاون والانصباب على العمل ثم الراحة وتترك اوجارها من يونيو الى سبتمبر لكي تدخلها الشمس وتطهرها وتضرب ثم في الارض اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة ترتاد البلاد وتأكل ما تجده من الاثمار . وعلى هذا النمط لم يبلغ الاسود الشهر الخامس من عمره حتى سار به ابواه الى مكان خصيب على ضفاف النهر الذي فيه قريتهما وكأنما يفتشان عن مكان ينتقلان اليه اذا دعت الحال وهو سائر معهما يأكل مما يصيبه في طريقه

ويرد الهواء في اواخر اغسطس فجعلت الكلاب تعود الى قريتها وهي تعلم انهُ لا بدَّ لها من قطع كثير من الاشجار وخزنها في بركتها طعاماً في شهور البرد والزمهرير حين يجلد الماء ويتعذر جلب الطعام. ورأى ابو الاسود حينئذٍ ان لا بد من بناء سد آخر على مقربة من غابة رآها في تطوافه فاستدعى مهندس القرية وهو مهندس ماهر فخطط ارضاً مساحتها فدان واشار بحفر ترعة ضيقة اليها وان تحفر الارض كلها الى عمق سبع اقدام وذلك مما لا يقدم عليه مهندس من بني الانسان ولكن مهندس تلك الكلاب عملهُ الطبيعة ما يعجز عنهُ مهرة المهندسين. وكلاب الماء تبني سدودها من جذوع الاشجار والطين اللازب . وللحال جاءت الكلاب كلها كبارها وصغارها ذكورها واناثها فاولاً قطعت جذوع الاشجار وجرتها الى حيث يراد اقامة السد وطول كل جذع منها من ثلاث اقدام الى عشر ووضعتها موازية لمجرى الماء مائلة الى الاسفل نحو قدم والطرف الغليظ منها الى الاعلى والدقيق الى الاسفل والصقتها بعضها ببعض بطين حر اخرجتهُ من قاع النهر . ولم تكن الأ ساعات قليلة حتى بلغ ارتفاع السد قدمين وتم عمله في ثلاثة ايام واتصل من طرفيه بتلتين تغطيهما الاشجار وتجمع الماء هناك بركة كبيرة يصل طرفاها الى اشجار التلتين. وواظبت الكلاب على قطع الاشجار وحفر الترع لجرها فيها الى البركة فامتلأ قاعها بجذوع الاشجار حتى

اذا جلد سطح الماء اقامت في اوجارها حولهُ وطعامها على مقربة منها

وبينما هي جارية في عملها لا تلوي على شيء فاجأها الهدُ اعدائها واشدها فتكاً وهو الغول(١) Glutton وكان قد بحث عنها في كل الفدران التي تصب في ذلك النهر الى ان وصل اليهِ - كانت كلاب الماء جادة في عملها وزعيمها مستلقياً على ظهر وجره تطشهُ نائماً وهو مستيقظ لكل حركة تبدو واذناه تسمعان كل ركز واذا بهِ قد ضرب الماء بذنبهِ ضربة عنيفة وغاص فيهِ وفي لحظة من الزمان غاصت الكلاب كلها وانقطع العمل تلك الليلة. لكن الغول لم يبأ بذلك بل اقام راصداً وهو شرس كالدب وعثال كالثعلب اضف الى ذلك ان لهُ صبراً كصبر الحمار - رأى ذلك ابو الاسود فقال في نفسهِ ما دام هذا العدو

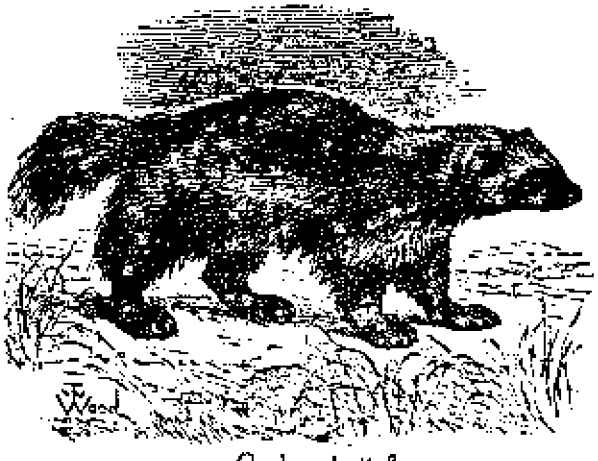

الغول Gulo

على مقربة منا فلا راحة ولا عمل ونحن في اشد الحاجة الى ذخر الطعام قبل الشتاء فلا منجاة لنا الاَّ بالنزال . الاَّ ان الغول يقتل الدب ويخشى الدبُ شرهُ وسلاحهُ انيابهُ و براثنهُ واما كلب الماء فلا سلاح لهُ الاَّ اسنانهُ ودماغهُ والنهر الذي جعلهُ دماغهُ من اعوانهِ

وفي الليل التالي اتى ذلك الغول وطاف بالبركة وهو قصير البدن مقوس الظهر غزير الشعر اخضر العينين يراقبهما طاف كأنهُ يمشي على الهواء ولا صوت ولا ركز لا منهُ ولا من كلاب الماء الى ان وصل الى بقعة داخلة في البركة كأنها رأس داخل في

(١) Gulo وهي من اللاتينية بمعنى الاكول او النهم ويحتمل ان تكون كلمة غول العربية منها

الجو فاستنشق رائحة طيبة رائحة كلاب الماء ونظر فاذا ابو الاسود قائم لهُ بالمرصاد فارتد ثلاث خطوات وفرَّ ثم وثب كالسهم وابو الاسود رابض في مكانهِ فوقع الغول عليهِ واغمز مخالبهُ في بدنهِ وحاول بانيابهِ ان يصل الى لحم رقبتهِ فالتفت اليهِ ابو الاسود وقبض على بدنهِ قبضة عنيفة وغاص بهِ في الماء فانقلبت الحال وحاول الغول التخلص من خصمهِ وارتفع الى وجه الماء قبل ان يختنق ولم يكتفِ ابو الاسود انهُ غاص في الماء بل وصل الى الطين اللازب وادخل رأسهُ فيهِ وانتظر لانهُ يستطيع ان يقيم تحت الماء ثلاثة اضعاف المدة التي يستطيع ان يقيها الغول من غير ان يختنق والحال ارتخى شدق الغول وصعدت فقاقيع الهواء من الماء ومعها روحهُ الخبيثة

لم يكد السبع يثيد حتى اقبل الشتاء بزمهريرهِ فجلد وجه الماء وقرت الكلاب في اوجارها وصندها كفايتها من الطعام ثم جاء الربيع واذا بالاسود قد بلغ اشدهُ وقبل ان دخل الصيف ضرب في البلاد معتزًّا بقوتهِ . وفي الصيف الثالث صار مثل ابيهِ جسمًا ومقدرة وتزاوجت كلاب الماء التي من سنهِ وانشد بعضها لبعض انانشيد الحب اما هو فهام على وجههِ وكان حينما مرَّ يكتب بانفاسهِ اغاني الحب على صفحات النسيم للتي احبها وعينهُ لم تكتحل برؤياها سوى الليلة الاولى والثانية وهو ينادي ولا مجيب في الثالثة وكان القمر بدرًا رأى من هام بها هائمة مثلهُ فالتقيا وتعانقا وسارا معًا الى نهر بعيد فالقيا عصى الترحال لكي ينشئا هناك بيتًا جديدًا وقرية جديدة يكون شعار ابنائها العمل والراحة والبهجة والحبور

هكذا كان شأن كلاب الماء في كل العصور الغابرة لكنَّ الانسان الانسان الفخور الانسان الكفور اعتدى عليها وكاد يقرضها مدعيًا ان الارض انما وجدت لهُ